

تفسير جزء عم

تأليف:

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زبير المحمدي الشافعي
كانت إقامته في الدنيا والآخرة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

تفسیر جزء عمّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَرَّبَاتٌ

الحمد لله، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَتَا بَعْدُ:

فإن من أهم المهمات هو فهم كتاب الله العزيز الذي أنزله الله عزَّجَلَّ على محمد ﷺ، وجعله حجة بينه وبين عباده، فهو الهدى والبيان والفرقان، وهو المحفوظ بحفظ الملك الديان، وقد ذكر الله عزَّجَلَّ من صفاته ما يدل على ما تقدم قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال الله عزَّجَلَّ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

ومن باب فهم القرآن درست جزء عمَّ في رمضان (١٤٤٠هـ) ثم رأيت أن أنشره للناس لعل الله أن ينفع به، والله المستعان.

وجزاء عمَّ فيه وسط المفصل وقصاره، وقد جاء من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: صَلَّى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ الْأَنْصَارِيُّ لِأَصْحَابِهِ الْعِشَاءَ، فَطَوَّلَ عَلَيْهِمْ، فَأَنْصَرَفَ رَجُلٌ مِنَّا، فَصَلَّى، فَأُخْبِرَ مُعَاذٌ عَنْهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلُ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ مَا قَالَ مُعَاذٌ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ فِتْنَانَا يَا مُعَاذُ؟ إِذَا أَحْمَتِ النَّاسَ فَاقْرَأْ بِـ ﴿ الشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ [١] ﴿ الشَّمْسِ: ١ ﴾، وَ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [١] ﴿ الأعلى: ١ ﴾، وَ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١]، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ [١] ﴿ الليل: ١ ﴾»^(١).

وكان تقسيم القرآن إلى أحزاب، ومنه المفصل مشهورٌ على عهد الصحابة رضوان الله عليهم، فذهب جمهور أهل العلم إلى أن المفصل من سورة ق إلى آخر القرآن على القول المشهور، ووسط المفصل من سورة عم إلى سورة الضحى على القول المشهور، وقصار المفصل من سورة الضحى إلى الناس، وهناك أقوال أخرى، لكن هذا أرجحها.

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥) واللفظ له.

وأغلب سور المفصل كان نزولها في بدأ الوحي حيث كان الناس لا يؤمنون بجنه ولا بنار، ولا بيعث ولا نشور، فقرر الله **عَزَّوَجَلَّ** لهم تلك الحقائق وجلاها وبينها وأوضحها، فتاب الناس من شركهم إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإسلام، ومن المعصية إلى الطاعة، فعند ذلك أنزل الله بعد ذلك: ﴿ **يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا** ﴾، أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة، لا تقربوا الزنا، ولا تقتلوا أنفسكم، إلى غير ذلك من الأحكام، ففي البخاري (١) عن عائشة أم المؤمنين **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، أَنَّهُ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ، فَقَالَ: أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَمَيْحَكَ، وَمَا يَضُرُّكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَيْنِي مُصْحَفَكَ؟ قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أَوْلْتُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيُّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفْصَلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا تَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّانَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ **ﷺ** وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿ **بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ** ﴾ [القمر: ٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ، قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ، فَأَمَلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّورِ.

ولما كان هذا هو الحال وأغلب الناس يقرءون في صلاتهم بقصار المفصل إلا القليل ممن قد حفظ القرآن أو شيئاً منه، بل إن كثيراً من حفاظ القرآن إن كانوا يصلون بالناس فإنهم يتوخون المفصل ووسطه وقصاره؛ رفقاً بالناس، وامثالاً لسنة رسول الله **ﷺ**، فإن غالب قراءات النبي **ﷺ** في الصلاة كانت من المفصل فعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أَنَّهُ قَالَ: مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ **ﷺ**، أَشْبَهَ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ **ﷺ** مِنْ فَلَانٍ - قَالَ سُلَيْمَانُ - «كَانَ يُطِيلُ الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ، وَيُخَفِّفُ الْآخِرَتَيْنِ، وَيُخَفِّفُ الْعَصْرَ، وَيَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارِ الْمُفْصَلِ، وَيَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ بَوَسْطِ الْمُفْصَلِ، وَيَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ بِطَوَالِ الْمُفْصَلِ» (٢)، ولا أعلم ما ثبت عن النبي **ﷺ** في القراءة خارج المفصل إلا ما كان من قراءة سورة الصافات كما قال ابن عمر: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ** يَأْمُرُ بِالتَّخْفِيفِ، وَيُؤْمِنُ بِالصَّافَاتِ» (٣).

وكذلك قراءة ﴿ **المر (١) نَزِيلٌ** ﴾ السجدة في فجر يوم الجمعة، وقراءة ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾

﴿ [المؤمنون: ١] ﴾، ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ ذِكْرَ مُوسَى وَهَارُونَ، أَصَابَتْهُ سَعْلَةٌ، فَرَكَعَ** ﴾ **ﷺ** (٤).

(١) برقم (٤٩٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٩١).

(٣) أخرجه النسائي (٩٠٢).

(٤) أخرجه أحمد (٩٠٢)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّائِبِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

وأغلب الناس يقرءون ولا يفهمون ما يقرءون؛ ولهذا تعين على العلماء والمشائخ والدعاة أن يبينوا معاني هذه السور، القصيرة في مبنائها العظيمة في معناها؛ فإن الإنسان إذا قرأ القرآن متدبراً متفهماً جره ذلك إلى الخشوع، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

وسبب زيادة الإيمان أنهم علموا معاني ما يُتلى عليهم، والله الهادي إلى سواء السبيل، فأسأل الله عَزَّجَلَّ أن يجعل ما يكتب نافعا لعباده مبلغاً إلى مرضاته.

وكتبه:

أبو محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد المحمدي الرضائي
كاتب الرضا في الرضا والآخرة

٦ / من ذي الحجة / ١٤٤٠ هـ
مسجد الصحابة بالفضة



مكية

الجزء الثلاثون سُورَةُ النَّبَاِ

آياتها ٤٠

سورة عمّ، سورة مكية، والغالب على السور المكية أنها تقرر المبدأ والمعاد، لما تقدم من كفر الناس بذلك، ومن كفر بالمعاد لم ينفع معه وعظ ولا إرشاد، وفيها من آيات الله الظاهرة ومن حججه القاهرة ما تبين هذا الأمر، وتجليها وتقوم بها الحجة الرسالية على الناس، وفي هذه السور بيان قدرة الله عزَّجَلَّ على ذلك وسهولة الأمر بالنسبة إليه، وما فيها من تقرير الناس بما ينظرونه من الآيات الكونية على صدق الآيات الشرعية، وقد تضمنت هذه السورة ستة محاور:

- ١ الأول: سؤال الكفار وتشككهم في يوم القيامة
- ٢ الثاني: ذكر آيات الله الدالة على قدرته وقوته، وغير ذلك من خصائص ربوبيته.
- ٣ الثالث: إثبات يوم الفصل، وهو يوم القيامة ويوم المعاد
- ٤ الرابع: بيان حال المشركين والكافرين في ذلك اليوم.
- ٥ الخامس: بيان حال المؤمنين وسعة فضل الله عليهم في ذلك اليوم.
- ٦ السادس: بيان شدة ذلك اليوم وما يقع فيه، من مجيء الملائكة، وما يلحق الناس على ما يأتي بيانه إن شاء الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ (٢) ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ (٣) ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٤) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٥)

يقول الله عزَّجَلَّ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون: ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾، أي: أن تسائلهم عن النبا العظيم، قيل القرآن، وقيل: يوم القيامة وهو الصواب، فإنهم يتساءلون عن الساعة؛ لأنهم كانوا يكذبون بها، وقد وردت عدة أسئلة في ذلك، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٢) ﴿[النازعات]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ نُفِصَلُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧)

[الأعراف: ١٨٧]، فهو من أعظم الأنباء التي تحصل على الناس إذ تتغير بها الأحوال، فتزول الحياة الدنيا ويشرع الناس في الحياة الآخرة، نعيم أو عذاب أبدي.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ بسبب شكهم وتكذيبهم للقرآن والسنة، ولو آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً ونبي، وآمنوا بكل ما أخبر الله عزَّجَلَّ به لزال عنهم هذا الاختلاف؛ إذ أن منشأ الاختلاف هو ترك الدليل كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾، أي: حقاً سيعلمون هذا اليوم وما فيه ﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾ تأكيداً لمعرفة ذلك اليوم، ولكن متى؟ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وكما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ، يَقُولُ الَّذِينَ سُئِلُوا مِنْ قَبْلِ قَدِّ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

ثم قال الله عزَّجَلَّ مبيناً قدرته العظيمة وأنه القوي الذي لا يُعجز والقاهر الذي لا يُغلب: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ألم نجعل لكم يا معاشر الكفار الأرض مبسوطة ممهدة، تبون فيها مساكنكم وتسلكونها لقضاء حوائجكم.

وهذه نعمة عظيمة، فكم من جبال شاهقة لا يستطيع الإنسان أن يطأ عليها أو يتسلقها، ولو كان هذا هو الحال لشق على الناس، ولكن جعل الله الأرض ممهدة تارة أودية، وتارة وهاد، وتارة تلال، وغير ذلك، ممهدة للمشي، والزراعة، والسكنى.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ جعل فيها جبلاً راسيات تثبتها؛ حتى لا تميد بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَعْمِدَ بِكُمْ وَأَنْهَرًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ١٥].

ونصب الجبال من آيات الله عزَّجَلَّ الباهرات، ودلائله العظيمة منها بيض وغرابيب سود، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر: ٢٧]، فتنوعت حجارها وألوانها:

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافاً كما قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾﴾ [الواقعة: ٧] جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ذكراً وأنثى، جعل بينهم مودة ورحمة وجعل بينهم التناكح والتناسل؛ لقضاء الشهوة وحصول الإربة.

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أي: راحة وسكون، وهذا من دلائل قدرة الله، فإن الإنسان إذا كان في حركة دائمة دائبة لحقه الفتور، وربما ضعفت قواه، وهزل جسمه، ولكن جعل الله له النوم؛ للدعة والراحة والسكون ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِنَّهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ لَبِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: ٧٢-٧٣].

وإذا عُدِمَ النوم من الإنسان دل ذلك على مرض، وعلّة حاصلة به، ويذكرون أن النوم الطبيعي ست ساعات، وللطفل أغلب اليوم، وكلما تقادم في العمر يقل نومه، وللنوم فوائد منها:

١- ذهاب الهم والحزن، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال: ١١]، فكم من إنسان إذا حصلت به مصيبة وحصل على شيء من النوم يقوم وقد انكسرت مصيبتته وهدأ قلبه.

٢- راحة البدن، إلى غير ذلك من المصالح، حتى أن الله جعله من الآيات الباهرات، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴾ [الروم: ٢٣].

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ يغطي البسيطة، ويلبس الناس فيتغطون به عن ضوء النهار، ويتغطون به في كثير من حوائجهم، فيمشي فيه المتخفي ويرتاح فيه المتعب.

﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ سبب لتحصيل الرزق، ويخرج الناس من بيوتهم لطلب أرزاقهم وقضاء حوائجهم، والليل والنهار آيتان عظيمتان يدلان على قدرة الملك القهار سبحانه وتعالى. وقد جعل الله عزَّجَلَّ لكل من الليل والنهار سلطاناً، فالشمس هي سلطان النهار الظاهر، والقمر هو سلطان الليل الباهر.

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ أي: رفع الله عزَّجَلَّ فوق الأرض سبع سماوات شديدة البناء بغير عمد، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَلْسِنَةٌ بَدَلًا ﴾ [٢٧] رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨].

وقد جاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ، وَاللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعَرْشِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ (١).

(١) أخرجه ابن بطّة في «الإبانة» (١٢٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥٢).

ومع ذلك تكون هذه السماوات العظييات في قبضة الله يوم القيامة، قال تعالى:

﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، ويلحقها التشقق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١) [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِلَ الْمَلَكِيَّةُ تَنْزِيلًا﴾ (٢٥) [الفرقان: ٢٥-٢٦].

وزين سبحانه هذه السماوات بمصاييح، وجعلها علامات يهتدى بها، ورجوماً للشياطين، وفي هذا رد على أصحاب الهيئة الجديدة الذي يقولون بتوسع العالم، وهو ما يسمى نظرية الانفجار العظيم، ويستدلون بقول الله عزَّجَل: ﴿وَالسَّمَاءُ بَيْنَيْهَا بَأْتِدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) [الذاريات: ٤٧]، يقولون بأنه بتوسع العالم، وهذا استدلال فاسد، فإن تفسير السلف يقضي على أن الله عزَّجَل خلق السماوات والأرض واسعة، فإن أصحاب الهيئة لا يؤمنون بسماوات طباقاً، ولا بعرشٍ ولا كرسي.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ أي: خلق الشمس، ﴿سِرَاجًا﴾ أي: ذات نور، ﴿وَهَاجًا﴾ أي: ذات حرارة، فلو كانت ذات نور بغير حرارة لربها لحق الناس الفساد في معائشهم وغير ذلك، ولو كانت ذات وهاج ولم تكن ذات نور للحق الناس كثير من البلاء، ولكن من حكمة الله جعلها سراجاً وهاجاً، فيستفيدون من نورها ويستفيدون من حرارتها، تنضج به الفواكه، وتنشف به المبللات، ويحصل به خير عظيم.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ أنزل الله من المعصرات، قيل: السماوات، وقيل: الرياح، وقيل: السحاب وهو الصحيح، وسميت معصرات؛ لأنها تعصر بإذن الله عزَّجَل فينزل منها المطر، ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي: أنه ينزل متدافعاً، ومنه حديث النبي ﷺ: أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْعَجُّ، وَالثَّجُّ» (١). العجُّ: هو رفع الصوت بالتلبية والتكبير، والثجُّ: هو إنهار الدم. ومنه ذلك الحديث: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي امْرَأَةٌ أُسْتَحَاضُ حَيْضَةً كَثِيرَةً شَدِيدَةً، فَمَا تَرَى فِيهَا قَدْ مَنَعْتَنِي الصَّلَاةَ وَالصَّوْمَ؟ فَقَالَ: «أَنْعَتُ لِكَ الْكُرْسُفِ؛ فَإِنَّهُ يَذْهَبُ الدَّمُ». قَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَاتَّخِذِي ثُوبًا»، فَقَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّمَا أُتِجُ ثَجًّا (٢). أي: أنه ينزل متدافعاً قوياً.

(١) أخرجه الترمذي (٨٢٧)، عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٧)، عن حمنة بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فيقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ﴿ عَظِيمًا نَافِعًا: ﴿ تَجَاجًا ﴾ كثيرًا، ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ ﴾ السبب في إنزال هذا الماء ﴿ حَبًّا ﴾ من الذرة والشعير والقمح والرز وغير ذلك، ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ من الفواكه والأعلاف، ﴿ وَجَنَّتِ أَلْفَافًا ﴾ جمع جنة، وهو ما يجن أي: يغطي بشجره، ﴿ أَلْفَافًا ﴾ يلتف بعضها على بعض لكثرة أشجارها، فهي حدائق غلبًا يغطي بعضها بعضًا؛ لكثرة أشجارها وطولها وعظيم خلقتها.

وهذه آيات باهرات تدل على عظمة الخالق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنه ينزل المطر على الأرض القاحلة فإذا بها تنبت النبات وتظهر الزهور وتنمو الأشجار بعد أن كانت ميتًا، وكل هذا يدلل به الله عَزَّجَلَّ على قدرته في إحياء الناس بعد إماتتهم.

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعَخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفِي حَتِّ السَّمَاءِ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُرَّتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سُرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاعِنِينَ مَنَابًا ﴿٢٢﴾ لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

ثم قال الله عَزَّجَلَّ خبرًا عن يوم القيامة: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ أي: يوم القيامة الذي يفصل الله عَزَّجَلَّ فيه بين العباد ﴿ كَانَ مِيقَتًا ﴾ له وقت معلوم لا يتأخر عنه ولا يتقدم، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشْرَقَ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١].

ثم بين عظم هذا اليوم بقوله: ﴿ يَوْمَ يُفْعَخُ فِي الصُّورِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَبْطِرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

الأولى: لقبض أرواح المخلوقات، والثانية: لإحيائها، كما قال: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]، يصعقون كصعقة نفس واحدة، ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَبْطِرُونَ ﴾.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: أُبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: أُبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ:

«أَبَيْتُ وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ، إِلَّا عَجَبَ ذَنْبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ»^(١)، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدِ اتَّقَمَ الْقُرْنَ، وَاسْتَمَعَ الْأَذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْعِ فَيَنْفَعُ»^(٢)، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «الصَّحِيحِينَ» قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمَرَ الْمُسْلِمَ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاصْعَقُوا مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفَيْقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَسْنَى اللَّهُ»^(٣).

﴿فَنَاتُونَ أَفْوَابًا﴾ أي: جماعات، تتدافع الرجال والنساء. حفاة عراة غرلاً بهما، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عَرَاةٍ غُرْلًا». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَمِثَّهُمْ ذَلِكَ»^(٤).

ويكرم المؤمن ويساق الكافر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا﴾^(٥) وسوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا^(٦) [مريم: ٨٥-٨٦].

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ وفي قراءة ﴿وَفُتِحَتْ﴾، هذه السماء التي تُشَاهَدُ الْآنَ مغلقة محكمة تتفتح وتصير أبواباً وطرقاً، تنزل منها الملائكة حين يُحْشَرُ النَّاسُ إِلَى الْمَحْشَرِ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنَزَلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، ومبدأ ذلك قول الله عزَّجَل: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ﴾ فهذه الجبال المرتفعة تسير يوم القيامة وتذهب حتى لا يبقى لها أثر، فيوم القيامة يجعلها الله كالعهن المنفوش كما قال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾^(٧) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾^(٨)

(١) متفق عليه، البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٣٧).

(٤) متفق عليه، البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨].

﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ فجعل الله عَرَجَلٌ للجبال حالات:

﴿ الأولى: أنها مثبتة للأرض.

﴿ الثانية: أنها تتحرك وتمر كمر السحاب.

﴿ الثالثة: أنها تتطاير وتكون كالعهن المنفوش.

﴿ الرابعة: أنهم يرونها كالسراب، كما في هذه الآية: ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ يرون جبالاً وليست

بجبال وإنما أثرها، ثم: ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ ﴿١٧﴾ [طه: ١٠٧]، وفي حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ»^(١).

ثم قال عَرَجَلٌ مخبراً عن النار وما فيها من أهوال أعادنا الله عَرَجَلٌ منها: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ ﴾ اسم من أسماء النار، ﴿ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أي: مرصدة للكافرين لا سبيل إلى الخلاص منها، وقيل مرصدة في طريق جميع الناس، لا يصل المؤمنون إلى الجنة إلا بالمرور عليها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَسِجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُوا الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا ﴿٧٢﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

وهذا وعيد عظيم يهدد الله به المشركين ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ ﴾ يا معاشر المشركين ﴿ كَانَتْ ﴾ أي: ما زالت ﴿ مِرْصَادًا ﴾ مرصدة لكم تترصدكم ولا سبيل إلى الخلاص منها ﴿ إِذَا الْقُورُ فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾ [الملك: ٧].

﴿ لِلظَّالِمِينَ مَأْتَابًا ﴾ للمجاوزين لأمر الله، طغوا وتجاوزوا الأمر فلم يفعلوه، والنهي فارتكبهوه، وأعظم ما وقعوا فيه الشرك بالله عَرَجَلٌ ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿١٣﴾ [لقمان: ١٣].

﴿ لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ يلبثون فيها مددًا طويلة قيل بأن الحقب ثمانون سنة والسنة اثني عشر شهرًا والشهر ثلاثون يومًا، وكل يوم بألف سنة مما تعدون والله أعلم.

واستدل بهذه الآية بعضهم على فناء النار، حيث زعم أنهم يلبثون أحقابًا ثم يخرجون منها، وهذا غير صحيح؛ لأن الله عَرَجَلٌ يقول: ﴿ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ ﴿١٧﴾ [البقرة: ١٦٧].

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

ويقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوهُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣١﴾ [فاطر: ٣٦]، وإنما المعنى هنا أنهم يمكنون مكثًا طويلًا ممتداً، والعرب قد تأتي بالكلمة التي ظاهرها الانقطاع وتريد بها الاستمرار.

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ أي: لا يطعمون أو يجدون في هذه النار بردًا، برودة ماء وجسم ولا برودة جو، وقيل: البرد هنا النوم على تفسير لبعض أهل العلم لا يذوقون فيها نومًا، ﴿ وَلَا شَرَابًا ﴾ أي: لا يجدون ماء سائغًا يذهب عطشهم، أو عصيرًا نافعًا يروي ضمئهم ﴿ إِلَّا أَحِيمًا ﴾ وهو الذي انتهى حره، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا بِغَائِثٍ أَوْ مَاءٍ كَأَلْمَهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهُ بِسُكِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقوله: ﴿ وَعَسَافًا ﴾ أي: الذي قد انتهى برده، وهو الزمهرير، وكأنه من المقابلة، ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ ﴿ إِلَّا أَحِيمًا ﴾ حارًا، ﴿ وَعَسَافًا ﴾ باردًا، وقيل: العساق هو ما يسيل من جلود أهل النار، فيشربونه عذابًا أليماً والله المستعان.

﴿ جَزَاءً وَفَاقًا ﴾ سبب الذي هم فيه أن الله يجازيهم بأعمالهم الفاسدة كما تدين تدان: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿ وَلَا يظلمُ ربُّكَ أحدًا ﴾ ﴿ [الكهف: ٤٩].

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي: السبب الذي أوردهم إلى هذا العذاب وجزوا به ﴿ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ كانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور، ولا يؤمنون بأن الله يبعث العباد ويجازيهم على أعمالهم، مع أن الله عَزَّجَلَّ قد بين ذلك على ألسنة رسله وفي محكم كتبه التي أنزلها.

﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ الشرعية التي أوحاها إلى أنبيائهم ورسلمهم، وربما الكونية حيث زعموا أن معه معين أو ظهير أو نصير، ﴿ كَذَابًا ﴾ أي: تكذبيًا، يعني أنهم تبادوا في التكذيب والمغالطة والإيهام.

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ ﴾ وهذا عام في كل عمل دق أم جل، صغر أم كبر، قولي أم فعلي، ﴿ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ حفظناه مكتوبًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَأَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

فالله عَزَّجَلَّ يعلم ما هم عليه، زد على ذلك أن الملائكة تكتب أعمال العباد، وليس هذا فحسب، يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ [النور: ٢٤].

❦ فيحفظ عمل الإنسان بأمر:

الأول: الله عَزَّجَلَّ مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية.

الثاني: الملائكة الذي سطوروا تلك الأعمال والأقوال: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ

﴿١٨﴾ [ق: ١٨].

الثالث: شهادة الجوارح تشهد عليك.

الرابع: إخبار الأرض، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا

﴿٥﴾ [الزلزلة: ٤-٥].

﴿ فذوقوا ﴾ هذا العذاب الشديد، ﴿ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ لا رحمة لهم، مع أن الله هو

الرحمن الرحيم، لكن قد قال عن نفسه: ﴿ وَاَكْتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا

هُدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ [الأعراف: ١٥٦]، بل يكتبهم بقوله: ﴿ قَالَ

أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ

الرَّحِيمِينَ ﴿١٩﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١٠٩]، فنعوذ بالله من حال أهل النار.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حُدَّيْقٍ وَاعْتِبَابًا ﴿٣٢﴾ وَوَعَابَ أَرْبَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسَادِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا

كِدَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ

فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ

الْكَافِرُ بِنَلَيْتِي كُتُّ رَبًّا ﴿٤٠﴾ ﴾

ولما ذكر الله عَزَّجَلَّ حال الكافرين في الآخرة ثنًا بحال المؤمنين جمعًا بين النذارة والبشارة، كما قال

تعالى: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا

حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]، والقرآن مليء بهذا، بترغيب وترهيب، فتارة يذكر الله أحوال الكافرين ثم

يشيها بحال المؤمنين، وتارة يذكر الله حال المؤمنين ثم يشيها بحال الكافرين، وبضدها تبيين الأشياء.

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾، والمتقون: هم الذين جعلوا بينهم وبين عقاب الله

عَزَّجَلَّ وقاية بفعل المأمور وترك المحذور، وهم المذكورون في أول سورة البقرة: ﴿ ذَلِكَ

الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أَوْلَيْكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾
 [البقرة: ٢-٥]، والمذكورون في سورة آل عمران: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ
 وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا
 فَعَلُوا فَجِئَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ مِنْهُمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَنْ يَكُنَ اللَّهُ لَكُمْ
 يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٥].

﴿مَفَازًا﴾ لهم فوزًا، وقيل: منتزهاً، ولا يمنع أن لهم فوزًا عند الله ولهم منتزه، يكونون فيه
 تذهب فيه أحزانهم، وتهدأ فيه أرواحهم، وتسكن فيه أجسامهم، زد على ذلك أن الله ينعمهم
 بأنواع النعيم المقيم الذي لا ينقطع كما قال تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٣].

﴿حَدَائِقَ﴾ هذا المنتزه الذي هم فيه وحدائق جمع حديقة، وهي قطعة من الأرض ذات ماء،
 فيه أنواع الأشجار، والثمار، والزهور، والروائح الطيبة، وغير ذلك، ﴿وَأَعْنَابًا﴾ وإن كانت
 الأعناب من ضمن الحدائق إلا أن الله ذكرها؛ لعظيم جمالها وطعمها ورغبة الناس فيها.

﴿وَكُوَاعِبَ أَرْبَابًا﴾ وفي هذه الحدائق، والمنتزهات التي أعدها الله للمؤمنين في جنات النعيم
 ﴿وَكُوَاعِبَ﴾ نساءً نواهد لم تتكسر أئدائهن؛ لطول السنين أو لكثرة الأولاد. ﴿أَرْبَابًا﴾ متقاربات
 في السن، قيل ثلاث وثلاثين سنة، وهذا من أجل ما يتبع به الرجل فليست بالصغيرة التي
 لا تستهى، ولا بالكبيرة التي قد زهدت في ذلك، وقد قال الله عَزَّجَلَّ في وصف هذه الكواعب
 ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً ﴿٣٥﴾ جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عَرَبًا أَرْبَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]، فهن أبكاراً على أي
 حال يأتيها زوجها، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قيل: يا رسول الله، أنفضي إلى نساءنا في
 الجنة، قال: ﴿إي والذي نفسي بيده، إن الرجل ليفضي في اليوم الواحد إلى مائة عذراء﴾^(١).

﴿وَكَأْسَادِهَا قَا﴾ يشربون فيها خمرًا لا لغو فيه ولا تأثيم، ويشربون من نعيمها ومن عيونها
 وأنهاها في أكواس تتدافق مليئة، لا يعترها نقص ولا تغير حال، وإنما أحسن الملابس
 والمطعم والمشرب، وحال الجنة كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ
 غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَّمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرْبِ بَيْنَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ
 الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

(١) أخرجه البزار (١٠٠٧٢)، والحديث في «الصحیح المسند» (١٣٨٤) لشيخنا مقبل الوداعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد وصف الله عَزَّجَلَّ هذا الشراب في سورة الدهر في عدة مواطن: قال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨]، أي: أنهم يشربون شرابًا مريبًا لا ينعصون به، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]، وقوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧]، إلى غير ذلك.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة، ﴿لَعْوًا﴾ كلامًا سيء ولا أذى، ﴿وَلَا كَذِبًا﴾ ولا كذبًا، وهذا كقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيْلًا سَلَمًا سَلَمًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]، وكقوله: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَعِينَةً﴾ [الغاشية: ١١].

﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: أن هذا النعيم جزاءٌ للأعمال الصالحة التي بادر بها المؤمنون في الدنيا من ربك الحافظ لك ﴿عَطَاءً﴾ يعطيك، ﴿حِسَابًا﴾ واسعًا لا نقص فيه، ولا قلة، ولا خشية انقطاع. ثم بين الله عَزَّجَلَّ كمال عظيمته فقال: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ أي: أن هذا الرب الذي أعطاك هذا العطاء الواسع العظيم الدال على كرمه هو رب السماوات والأرض وما بينهما، وهو الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد جاءت قراءة: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ فجعلت الجملة مستأنفة، وكلا المعنيين صواب، فالجنة جزاء من رب السماوات والأرض الرحمن، وكذلك رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يملك الناس منه خطابًا، ويكون هذا ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ يوم القيامة يسكت الناس في مواطن فلا تسمع إلا همسًا، و﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبا: ٣٨] ودعوة الرسل عند الصراط: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»^(١)، ﴿قَالَ أَحْسَرُوا فِيهَا وَلَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

﴿يَوْمَ﴾ أي: هذا في يوم القيامة، ﴿يَقُومُ الرُّوحُ﴾ وهو جبريل، وقيل: أرواح بني آدم، وقيل: غير ذلك، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ملائكة الله تكون صفوفًا تحيط بالناس، ﴿صَفًّا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: لا يتكلم الناس، ﴿إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ من أذن له أن يتكلم، فعن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيِّكَلُمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ»^(١).

﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ قال حقاً؛ لأن: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ الذي سيكون ولا محالة، وفي قول النبي ﷺ: «وَالسَّاعَةُ حَقٌّ»^(٢)، فلا يجوز أن يتكلم فيه بالباطل، إنما يتكلم بالباطل في هذه الدنيا التي جمعت حقاً وباطلاً، وضاللاً وهدى، وإيهاً وكفرًا، أما ذلك اليوم فيوم حقٍ وصدقٍ، فلا يستطيع أن يتكلم أحد إلا بالحق، وإن تكلم بغير ذلك فضح على رؤوس الأشهاد.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾ أي: في الدنيا ففي يوم القيامة لا يستطيع أحد أن يقدم أو يؤخر، ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ يا معاشر المكلفين من الجن والإنس ﴿اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾ سبيلاً وأوباً ورجوعاً، كما قال: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣) [النور: ٣١].

ثم قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ﴾: خوفناكم هذه الآيات البينات والدلائل الواضحات التي أنزلها على رسوله ﷺ، ﴿عَذَابًا﴾: موجعاً، ﴿قَرِيبًا﴾: لا يتأخر ولا يتخلف، وما بينه وبينه إلا أن يموت، فقد كان عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرِ يَبْكِي حَتَّى يُبَلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْأَحْرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ»^(٤).

ويكون هذا العذاب القريب: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ﴾ الرجل والمرأة، والجنى والإنسى، ينظر ما قدمت يدها ما قدم من الأعمال، وذكر اليمين؛ لأن كثيراً من الأعمال يتعاطاها باليدين، والواقع أنه يجد كل الأعمال ما قدم فرجه ويدها، ورجلاه، ولسانه، وسمعه، وبصره، نسأل الله السلامة.

﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ﴾ كل إنسان ينظر أعماله كما في الحديث: «فَيَنْظُرُ أَيَّمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ»^(٥)، وكما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٦) [الكهف: ٤٩].

(١) متفق عليه، البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)، عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٧٦).

(٤) متفق عليه، البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)، عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ ﴾ بلسان الحال أو المقال، وقيل: الكافر إبليس فيكون من العام الذي أريد به الخصوص وذلك أنه سخر من أصل خلقة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.
 ﴿ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أي: أنه كان ترابًا ولم يخلق أصلًا، وقيل: المعنى لما يرى من أن الله عَزَّجَلَّ أحال الحيوانات إلى تراب بعد القضاء بينهم، يقول: يا ليتني كنت مثل هذه الحيوانات أصير ترابًا وأسلم من العذاب الأليم، والخزي العظيم، نسأل الله السلامة.

والمحمد لله رب العالمين.

